الفصل الثاني:

البحـريـن

كان التقليدُ المتَّبَع في عنيزة في أوائل القرن العشرين أن يُرسِل الأغنياء أبناءهم إلى الخليج العربي أو الهند أو مصر أو الشام لكي يكتَسبوا شيئًا من تجارب العالم الخارجي. وكان القصد من وراء ذلك أن يتابع هؤلاء الشباب تعليمهم وأن يبدأوا العمل في التجارة.

وكان أفرادٌ من بعض الأسر في عنيزة قد استقروا في بعض المدن خارج نجد ونجحوا في تأسيس أعمال تجارية هناك. فكان هناك أفرادٌ من أُسَر البسام والقاضي والفوزان في بومباي؛ وأفراد من الذُّكَيِّر في البصرة. وكان المتَّبع أنه إذا كان شخصٌ من عنيزة يعرف مثل هذه الأسرة فإنه يَكتب إلى كبيرها طالبًا منه إلحاق ابنه به ليتدرب في أعمال التجارة أو بصفته عاملاً. وكان مثل هذا الابن، وغالبًا ما يكون في بواكير الشباب، يقضي جزءًا من وقته في الدراسة وجزءًا في العمل عند مُضيِّفه في أعمال مثل: مراقبة تنزيل البضائع وتحميلها من المراكب [التي تسمى بـ "الدّهُو"]، أو في نقلِ الرسائل، أو العملِ في تحميل المراكب بالبضائع أو تنزيلها منها. وربما سُمح له، مع

obeikandi.com

تقدمه في السن، أن يبدأ في مزاولة التجارة لحسابه الخاص جزءًا من الوقت.

وكان حَمَد، الأخُ الأكبر لسليمان، قد أرسله أبوه أوَّلاً إلى البصرة حيث أقام عند أسرة الذُّكير، ثم أُرسل بعد ذلك إلى البحرين ليعيش مع أسرة العجاجي، وكان هؤلاء عملاء أبيه التجاريين. ثم عاد خلال تلك الفترة إلى عنيزة بعد أن وفَّر شيئًا من المال، كما هي عادة أكثر الشباب الذين يعيشون في الخارج، ليتزوج الفتاة التي اختارتها له أسرته. وحين عاد إلى البحرين قررت الأسرة أن يَصْحب معه أخاه الأصغر سليمان الذي كانت سنه حينذاك تتراوح بين السادسة والثامنة.

ويتذكر سليمان أنه كان سعيدًا جدًّا بذلك ولا يزال يتذكَّر أنه حُمِل ووُضع في "الخرِج" على جَملِ أخيه. ومن المؤكد أنه كان يستطيع في تلك السن أن يمتطي جملاً خاصًّا به، لكن رفقاء الرِّحلة كانوا يَخشَون، بسبب سفرهم ليلا، أن يَغلبه النومُ فيَسقُط من على ظهر الجمل في غفلة منهم. وكان "الخرِج" الوسيلةَ المألوفة لنقل الأطفال أثناء الأسفار في تلك الفترة؛ وتمثل هذه الوسيلة جزءًا من ذكريات الطفولة عند كثير من السعوديين الذين ينتمون إلى جيل سليمان.

وكان سببُ سفرِ تلك الرِّحلة ليلاً شيوعَ الخوف والعنف في الجزيرة العربية آنذاك. وكان الملك عبدالعزيز آل سعود، الذي

كان يلقب بـ "ملك والحجاز وسلطان نجد"، قد انتهى لتوِّه من توحيد أجزاء كبيرة من الجزيرة العربية، وهي التي سميت في سنة ١٩٣٢ بالمملكة العربية السعودية، لكن الأمن لم يكن قد استتب بشكل نهائي فيها. وكان عددٌ من القبائل التي كانت تُمثِّل أغلب جيشه ثائرةً عليه لغضبها من حَدِّه لعمليات الغزو التي كانت تقوم بها للعراق والأردن اللذين كانا تحت الحماية البريطانية. ولم تكن غاراتُ تلك القبائل موجهةً ضد حكومة الملك عبدالعزيز وحسب بل كانت موجهة كذلك، وكما هي العادة في غزو البدو، نحو أي شيء يمكن أن يُنتهب - كقوافل التجار، أو جماعات المسافرين، أو قطعان الأغنام أو الإبل التي تملكها القبائل الأخرى. وتمثِّل تلك الغارات في الواقع آخرَ أكبر المحاولات التي قامت بها القبائل للتعبير عن استقلالها وتأكيدِه قَبْل أن يُرغِمها الملك عبدالعزيز على الخضوع لسلطة الدولة السعودية الناشئة.

ويدلُّ حدوثُ رحلة سليمان في تلك الفترة أنها كانت في سنة ١٩٢٨ أو ١٩٢٩. إذ تروي زوجةُ أخيه حمد فيما بعد أن تاريخ هذه الرحلة كما دوَّنتْه يوافق شهر أكتوبر ١٩٢٨، لكن سليمان نفسه يرى أن تاريخها متأخر عن ذلك قليلاً. ويَستدِل على رأيه هذا بما رواه له رفقاءُ الرحلة من أنهم في أثناء سفرِهم بين الرياض والأحساء، وهو جزء من الرحلة استغرق

ستة أيام، نزلوا على أحد "الموارد" وصادفوا عنده رُسُلاً يمتطون عددًا من النجائب أرسلهم الأميرُ عبداللّه بن جلوي أمير منطقة الأحساء [التي يطلق عليها الآن المنطقة الشرقية] إلى الملك عبدالعزيز ليُبلِغوه بخبر قتْلِ قبيلة العِجْمان فهدًا بن عبداللّه بن جلوي. وقد وقعت المعركة التي قُتل فيها فهد بن عبداللّه بن جلوي في مايو ١٩٢٩، ومن هنا يكون تاريخ تلك الرحلة متأخرًا قليلاً عن التاريخ الذي تظنُّه زوجةُ أخيه، إن كانت المعلومات التي رُويت لسليمان صحيحة.

ولما وصل سليمان إلى البحرين واستقر في بيت العجاجي، بدأ حياة مختلفة اختلافًا كبيرًا عن الحياة التي عرفها في عنيزة. وكان يُغطي الجزءَ الشمالي من جزيرة البحرين غاباتٌ من بساتين النخيل التي كانت تتخلل ظلالَها الوارفةَ بعضُ الطرقات الضيقة وعددٌ قليل من العيون والجداول. وكان الماء يُحمَل من هذه العيون كل يوم إلى سوق المدينة في القِرَب على ظهور الحمير؛ وكان ثمن الماء يتناسب غلاءً ورخصًا مع درجة صلاحه للشرب، وكانت المنامة عاصمة البحرين تكاد تخلو من الأشجار؛ ومنازلها مبنية بالحجر الجيري الذي يُستخرج من قاع البحر في أوقات الجَزْر. وكانت البيوت المبنية من طابقين قليلة. وشوارعها ضيقة ومزدحمة، لكنها كانت مسقوفة بالحُصُر المصنوعة من سَعَف النخيل من أجل تظليلها. وكانت الدكاكين

الصغيرة، ذات الأبواب الخشبية، تَبيع بضائع تستورد من الهند، وبعض المنتوجات الأوربية كذلك.

ولم تكن البحرين تُدين في رخائها الاقتصادي المتواضع لبساتين النخيل والآبار وحسب، بل لكونها أيضًا المركزَ الرئيس لاستخراج اللؤلؤ في الخليج، والمصْدرَ الرئيس للؤلؤ في العالم قبل انتشار اللؤلؤ الصناعي الذي بدأت تُنتِجه اليابان في أوائل الثلاثينيات. وكان العمال يأتون من أنحاء الخليج كلها ومن أماكن بعيدة من داخل الجزيرة العربية ليعملوا بَحّارين أو غواصين في مراكب "الدّهُو" التي تعمل في استخراج اللؤلؤ أثناء أشهر الصَّيْف. وكان أولئك الغواصون يتقاضون أجورًا زهيدة مقابل عملهم. ذاك أنهم قلَّما كانوا يَعثُرون على لؤلؤة لها قيمة كبيرة. وكان أغلبهم يَظل حياتَه كلَّها مَدينًا لملاّك مراكب "الدهو" الذين كانوا يدفعون لهؤلاء الغواصين بعضَ أُجورهم مُقدَّمًا في بداية موسم الغوص لإرسالها إلى أهاليهم. وكان الدافعُ الوحيدُ وراء استمرار هؤلاء العمال في هذا العمل سنةً بعد أخرى أنه لم يكن له بديل إلا البطالة. ولما كانت البحرين تمتلك أكبرَ أسطولٍ للغوص فقد كانت السوقَ الرئيس للؤلؤ في الخليج، وكان يقصدها تجارُ بومباي لشرائه، كما كانت المركزَ الذي يَنطلق منه أكثرُ التجار العرب طموحاً إلى الهند وأوروبا لبيعه.

وكان رخاء الجزيرة سببًا لتردد السفن البخارية لشركة "خطوط الهند البريطانية" عليها. وكانت المنامةُ المدخلَ البحري الرئيسَ لأكثر البضائع تطورًا إلى أنحاء الخليج. وكان يوجد في البحرين، إضافة إلى الجالية النجدية، جالياتٌ من التجار الإيرانيين والهنود.

وبدأ الإنجليز منذ مطلع القرن العشرين في تأسيس بعض المكاتب السياسية في الساحل العربي للخليج لرعاية العلاقات بين بريطانيا والحكام المحليين الذين كانوا يرتبطون معها بمعاهدات. وكانت البحرين المكانَ الأولَ الذي أَرسَلت إليه بريطانيا ممثلاً لها. وفي أواسط العشرينيات استعان حاكمُ البحرين الشيخ حمد بن عيسى الخليفة بمستشار إنجليزيّ كان "قسمُ الخدمات السياسية في حكومة الهند" قد اختاره له من بين الذين تقدموا لهذه الوظيفة استجابةً لإعلان عنها نشرتْه هذه الهيئة في باب الإعلانات الشخصية في جريدة التايمز [البريطانية]. وكان هذا المستشار، واسمُه تشارلز بلجريف، متعددَ المواهب ذا شخصية قوية، واستطاع بالتدريج أن يؤثّر، أو يتحكّم، في معظم شؤون الحكومة البحرينية. وكانت بعض مظاهر الحياة الاستعمارية الهندية والبريطانية الواضحة قد أخذت تشيع في البحرين إبان وصول سليمان إليها، وقد حافظتْ على تلك الخصائص لسنوات عديدة بعد أن نالت استقلالها في سنة ١٩٧١.

والتحق سليمان في بداية الأمر بالمدرسة الأمريكية في المنامة. وأمضى فيها شهورًا قليلة مع طلاب يتراوح عددهم بين الخمسين والمائة، وكانوا يَدرسون اللغةَ الإنجليزية التي كانت المادةَ الوحيدة في الخِطة الدراسية لهذه المدرسة. ثم انتقل إلى مدرستين حكوميتين فيما بعد، وكانتا المدرستين العصريتين الوحيدتين في البحرين. ودرس حينئذ منهجًا إنجليزيًا معدَّلاً يشمل الرياضيات والجبر والجغرافيا والتاريخ، وبعد بلوغه الثانية عشرة تقريبًا أخذ هو وزملاؤه يدرسون الموادَّ كلها باللغة الإنجليزية. ولم يكن الزمن المخصص للمواد الدينية في هاتين المدرستين يتجاوز الساعتين أو الثلاث في الأسبوع، وهو خلاف المألوف في نظام التعليم في الجزيرة العربية الآن نتيجة لإلزام المدارس بتخصيص ما يقرب من ثلث الخطة الدراسية لدراسة المواد الدينية نتيجة لتأثير التيارات الإحيائية.

وكان سليمان طالبًا مُجتهدا. فقد كان يقضي ساعات طويلة بعد انتهاء اليوم الدراسي في استذكار دروسه في بيت العجاجي. وكانت الكهرباء التي دخلت بيوت البحرين في منتصف الثلاثينيات تُطفأ في ساعة محدَّدة من الليل، وكان سليمان إذا ما أُطفئت الكهرباء يأخذ فراشَه وسراجَه الذي يَعمل بالكيروسين ويَخرج إلى فناء البيت ليواصل مذاكرته. ويتذكر بعض زملائه البحرينيين أنه كان ذكيًا إلى حد كان يؤدي

obeikandl.com

بهم إلى الغيظ منه. ويروي المرحوم أحمد كانو، الذي صار رئيسًا لأكبر البيوت التجارية في البحرين، لأحد الموظفين في شركات سليمان بعد سنين طويلة من تلك الفترة أنهم كانوا كثيرًا ما "يُخفون كتبَه، ويسرقون واجباته المدرسية ويُسعِفونه بالإجابات الخاطئة إذا حدث أن طَلب منهم المساعدة -ومع ذلك فكان يأتي في المقدمة دائما". وإذا استثنينا كرة القدم، فلم يكن هناك الكثير مما كان يصرف سليمان عن الدراسة- وقد أهداه أخوه في أحد أعياد الفطر هدية رائعة، وكانت دراجة هوائية. وكانت تلك أمنيتَه التي طالما توسَّل لأخيه كي يحققها له. ويقول سليمان إنه استطاع بعد عدد قليل من المحاولات أن يتعلم كيف يَركبها ويُبدِّل ملابسَه الرياضية في آن واحد.

وفي سنة ١٩٣٦ ترك سليمان المدرسةَ ليعمل في شركة نفط البحرين التي كانت تملكها في ذلك الوقت شركةُ ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا وشركة تكساس [اللتان تُسميان الآن شيفرون وتكساكو]. وكانت شركة ستاندرد أويل قد حصلت -بمفردها في البداية- على امتياز استخراج النفط من البحرين سنة ١٩٣٢ وبعد سنتين بدأت في تصدير كميات محدودة جدًّا منه، وكان ذلك أولَ تصدير للنفط من الجانب العربي للخليج. وقد كُلِّف سليمان بمراقبة قياس كميات الزيت في مجموعة من الصهاريج في حقل "عوالي"، وهو الحقل الذي ظل الحقلَ المنتج

obeikandi.com

الوحيد في البحرين [وكان إنتاجه قليلاً]. وكان عملُه يَشمَل مراقبةَ كمية الزيت الذي يأتي من كل بئر وقياس حرارته وكثافته المحدَّدة ومقدار ما يحويه من الرَّمل. وبعد أسابيع قليلة نُقِل إلى ميناء التحميل في "ستِّرة" حيث كان يعمل في مراقبة ضخ الزيت في ناقلات النفط. وكان يتقاضى عن عمله ذاك أجرًا زهيدًا لا يزيد عن روبية ونصف في اليوم، وهو ما يساوي أربعين سنتًا أمريكيًّا.

obeikandl.com